و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٢/٠١/١٤٤٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله الا الله وأن محمدًا رسول الله، أما بعد:

حديثنا اليوم عن سيرة شيخ من شيوخ الإسلام، وهذه السيرة التي نتعاهدها بين الفينة والفينة هي؛ لمجرد استحضار أثر هؤلاء الأئمة والعلماء والمشايخ على الدين ، وكيفية تكوينهم وهذا الأهم أحيانًا.

كيف تكونت الحصيلة العلمية؟ كيف تكونت شخصياتهم؟ ماهي أسباب تكوينهم العلمي أو العملي؟ وكيف أصبح هؤلاء الأشخاص بهذه القوة؟،

فإنَّ سيرهم نجوم نستهدي بها لنعرف كيف تكون هؤلاء، وكيف أثروا على غيرهم، وكيف نأتي نحن بعد ما يقرب من سبع مائة سنة من وفاتهم؛ لننهل من علومهم، وكيف أنه عظيم أن تبقى سيرة إنسان عادي _ليس بنبي ولا صحابي_ لأكثر من سبع مئة سنة، بل أكثر، بل قد يكون إلى يوم القيامة، وهم ليسوا في زمرة الصحابة، ولا في زمرة التابعين، بل أناس ولدوا في القرن السادس، أو السابع الهجري، ومع ذلك يجري الله عز وجل ألسنة الناس بالدعاء لهم، والثناء عليهم؛ لما قاموا به من أجل الإسلام.

<u>أقوال العلماء عنه:</u>

شيخنا الذي سنتحدث عنه اليوم، وسنتناول سيرته:

- قال عنه تلميذه ابن القيم _ المعروف بثقته وأنه ليس من المادحين ولا المطرين الناس بغير ما فيهم _ : "شيخ الإسلام والمسلمين ، القائم ببيان الحق، ونصرة الدين ، الداعي إلى الله ورسوله، المجاهد في سبيله، الذي أضحك الله به من الدين ماكان عابساً[1]، وأحيا به من السنة ما كان دارسًا[2]"،

- وقال عنه ابن سيد الناس اليعمري: "ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه[3]"

[1] تشبيه فكأن الدين كان فيه شيئًا عابسًا والله عز أضحك به هذا الدين

[2] لأن هناك شيء من السنة اختفى ولم يعمل به الناس فكان الشيخ ممن أحيوا هذه السنة

[3] يعني: لم يشاهد في القرن الذي هم فيه مثله ولاهو بنفسه رأى مثله

- قال عنه ابن دقيق العيد وهو من الأئمة المعروفين _ : "ماكنت أظن أن الله تعالى بقي يخلق مثله[4] رأيت رجلًا جمع العلوم بين عينيه يأخذ منها ويدع ما يريد"

- وقال عنه الذهبي: "أحيا به الشام بل والإسلام بعد أن كاد ينثلم[5]،"

- وقال عنه ايضًا الذهبي: "وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته[6]، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أن ما رأت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه".

فانظروا كيف تتكرر العبارة من أكثر من شخص، أن حتى هو ربما لم ير مثل نفسه!،

- وقال عنه ابن الزملكاني: وهو من أكبر أعدائه ومن ألد خصومه _ : "ولم يُر من خمسمائة عام مثله"، وسنأتي على ذكر خصوماته مع الشيخ الذي ما رؤي من خمسة قرون مثله.

- وقال عنه عماد الدين الواسطي ولم يكن من تلاميذه _ : "فوالله ثم والله لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم[7]"، وقال أيضًا: "ما أسلمت معارفنا إلا على يده[8] "

- وسجل المرأ في كتابه عن ابن تيمية كلمات فقال: "ولولا رجال من طراز ابن تيمية ما كنا نستشرف مبادئ السلف الحق، وما كنا لنعرف الحق إلا مشوبًا برأي ضال أو مبتدع أو ملبس".

---

[4] كان بعيد عن ظنهم في ذلك العصر أن يجيء شخص بقوته العلمية

[5] يعني: ينكسر

[6] يعني: صفاته

[7] كان قوله هذا في رسالة أرسلها إلى تلاميذه

[8] يعني: مدينة واسط القرية والمدن الكاملة التي يعيشون فيها على بعدها إلا أنها أسلمت على يده

نشأة شيخ الإسلام:

شيخنا هو: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، وهو الذي نتحدث عنه دائمًا ونكرر اسمه في دروسنا، فنقول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وعندما نتحدث عن شيخ الإسلام ابن تيمية، نتحدث عن شخص موثوق، ورأي قد يكون عليه جمهور العلماء.

ولد في حرّان، سنة ٦٦١ هـ، وهو الزمن الذي تسلط فيه المغول والتتر على المسلمين، ولمّا بلغ من العمر سبع سنوات انتقل مع والده إلى دمشق هربًا من الغزاة التتار.

شيخ الإسلام ابن تيمية لم يرث العلم عن كلالة، فلم يتحصل على العلم فجأة ولأول مرة، بل كان في بيت علم وفقه ودين، فقد نشأ في بيئة علمية، عنده أعمام وأجداد وأقارب، أولئك الناس أغلبهم كانوا أئمة وعلماء ومنهم: (مشي)، وأيضًا من العلماء المشهورين جده الأعلى: (محمد بن الخضر) و(عبد الحليم بن محمد بن تيمية) و(عبد الغني بن محمد بن تيمية)، وجدهم (جد الدين أبو البركات) وأبوه (عبد الحليم) فكلهم هؤلاء كانوا علماء ومعروفين في بلدناهم.

تعليق وإرشاد:

ولْنضع نقطة هنا لنتحدث عن **أهمية تكوين الأسرة**، وأن يكون فيها العلم والفقه والدين،

عندما تزوّج ابنك أو تبحث له عن زوجة ما هي المواصفات التي تحددها؟ أن تكون الأجمل فقط!،أو لديها شهادة!، أم وظيفة؟،

المفترض أن يكون اختيارك هو: (البيت) و(التقوى)، و(العلم)؛ بيت شيخ الإسلام ابن تيمية كان بيت علم إلى جده السابع فإذا كان العلم والدين متأصل في العائلة ينتقل للأطفال والأحفاد أيضًا وهنا تكمن أهمية تخيّر الأسرة، وينطبق كذلك على الفتاة في مواصفات الزوج عندما تختارين، لا يكن معيارك الظرافة، أو الجمال أو المال فقط، لا تكن معاييرك سطحية في اختيار شريك حياتك وأبي أبنائك، وعمود أسرتك طويلة الأمد، إن كنتِ لا ترغبين باقتصار أسرتك على زوج وابن وتنتهي، فالسر هنا: **إن أردتِ صلاح الأحفاد إلى سابع أو ثامن جيل فكل ما كان الصلاح موجودا في الطبقة المؤسسة (الأب والأم) تعدى الصلاح إلى ما بعده**.

في هذه البيئة بدأ شيخ الإسلام ابن تيمية في طلب العلم وكان أول ما حفظ القرآن الكريم وحفظ الدواوين الستة بأجمعها الإمام أحمد، والنسائي وغيرهم، ثم ابتدأ وسمعها كلها سماعًا طويلًا ثم ابتدأ بكتب علم اللغة والنحو إلى آخرها حتى بزغ فيها[9].

فائدة:

ماسبب تسميته (ابن تيمية)؟، تيمية هي جدة أبوه وسميت (تيمية) لأن أباها ذهب إلى الحج وأمها حامل بها وهو عائد من مكة إلى الشام مر بمدينة تيمة وهي منطقة بين المدينة وتبوك فإذا بخيام موجودة وطفلة صغيرة تخرج من بين الخيام فشدت انتباهه هذه الطفلة، انتهى المشهد ووصل إلى دمشق ولدت زوجته بنتًا تشبه التي رآها في قرية تيمة فقام يدلعها يا تيمية يا تيمية فذهب الاسم على هذه البنت، يقول ابن النجار عن هذا الاسم: "وذكر لنا أن جده محمد كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة[10]فنُسب إليها وعرف بها" فاشتُهرت بطلبها للعلم وبوعظها للناس فصار الناس يعرّفونه هو بأمه لا بأبيه فقط فيقولون له: أنت ابن تيمية، أنت ابن تيمية، إلى أن ذهب اسم للعائلة.

العصر الذي عاش فيه:

ونقف عند لمحات في سيرته لنعرف ما هو العصر الذي عاش فيه، كان العصر الذي تسلط فيه المغول عليهم، كما أنه العصر الذي ابتدأت فيه الحملات الصليبية على بلدان المسلمين ؛فتساقطت واحدة تلوى الأخرى،

وهو القرن السابع، نزل المسلمون في حضارتهم، وفشى فيهم الجهل والشرك، وتوقف باب الاجتهاد؛ فانتشرت بينهم الشعوذة والصوفية وغيرها،

وفي هذه المرحلة من الضعف؛ نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية، ونشأ في وقت افترقت فيها الأمة على مذاهب شتى، فما كان يُعرف أهل السنة والجماعة إلا بالشيء القليل،

و أما الدولة الأموية بدأ التتار في احتلالها من تركستان الشرقية هناك بلاد السند والهند حتى وصل إلى العراق، سقطت بغداد في الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ، ثم وصلوا إلى دمشق فكأن أحدا أتى بممحاة وطفق يمسح دائرة الإسلام كلها خلال عشرات السنين، والمدن تتساقط من جهة، والناس من جهة أخرى ما بين ضعف وجهل وفقر وتمزق داخلي،

في مثل هذه الأوضاع التي من الطبيعي أنها لا تولد إلا الضعفاء أتى شيخ الإسلام ابن تيمية، فنشأته في هذا العصر نشأة استثنائية، تلمع ذهبًا في الوقت الذي كان فيه العالم ملطخًا بالطين، عصر كثر فيه الرافضة والصوفية

[9] يعني: تجاوز التلقي إلى التأليف والتصنيف فصار مولّد للمعرفة والعلم

[10] يعني: داعية إلى الله

والخوارج والمعتزلة والمرجئة والقدرية، مذاهب كثيرة جدًا، اختلفوا في الأسماء والصفات والعقائد، غير التناحر الذي كان بين مذهب الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية، وكان لكل من هؤلاء مدرسة ومسجد، فكان العصر الذهبي لهذه المذاهب القرن السادس والسابع بعد فتنة الخوارج ومقتل عثمان، بدأت هذه الفرق بتكوين نتاجها العقلي؛ فصارت مدارس تتناحر فيما بينها، وهذا ما جعل الدولة الإسلامية لقمة سائغة للاستعمار، سواءً الحروب الصليبية من جهة، أو التتار الذي بدأ بأخذ المدن الإسلامية التي فتحت في زمن عمر بن الخطاب،

وعلاوة على ذلك بدعة جديدة ظهرت للناس وهي؛ علم المنطق والفلسفة وعلم الكلام، وهي علوم يونانية بحتة قائمة على فكرة التشكيك، فلا يوجد لدى معتنقيه مسلمات، ومن أسباب انتشار ذلك؛ اتساع رقعة الدولة، وتأسيس بيت الحكمة، وما قام به الخليفة المأمون لتطوير حركة الترجمة.

أحد الذين تأثروا بمذهب الشك وقف على القبر بعد أن مات ابنه فقال أحدهم له: أما آن لك أن تتوب؟ _يعني من مذهب الشك_. قال: لا، فإني لا أعلم إن كان حيًا أو ميتًا.

ليس عندهم حقيقة ثابتة إلى درجة إنكاره الموت، فيعتقد أنه لا يمكن أن يجزم بموت ابنه، فربما يكون نائما أو ماشابه،

فتأملوا إذن في عالم ممزق هذا التمزق ما بين فرق ضالة، ومبتدعة، وأناس تتناحر مذهبيًا، وأبواب جديدة من علم الفلسفة، والشك، والمنطق، وعلم الكلام؛ حتى أصبح هناك مذاهب مثل الوجودية، الإلحادية، وما يسمى بوحدة الوجود، وأشهر معتقديه جلال الدين الرومي، وهو مذهب إلى الآن يُسوّق له، والذي يعني أن لا شيء اسمه أديان، لكن الإله موجود في كل مكان، وكانوا يمسكون ملابسهم ويقولون ما في الجبة إلا الله _تعالى الله وتبارك عن قولهم _ وأنه موجود في كل مكان حتى في نفسي _ حاشا الله _، ويقولون موجود في هذه العلبة، وتحت الطاولة، وفي كل مكان؛ فاتحد مع خلقه،

وفي وسط هذه الخرافات التي سُلطت على الناس؛ نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية.

كان في كل مواقفه وحياته كأنه سيف مسلول أمام تلك البدع، وكانت مؤلفاته كلها زاخرة في الرد عليهم مثل: العقيدة الواسطية ،والعقيدة الحموية، والعقيدة التدميرية، والصارم المسلول على شاتم الرسول، فكل ما ظهرت بدعة رد عليها، حتى بلغت مؤلفاته أكثر من خمسمائة مجلد،

ولا يُعرف أحد من علماء الاسلام ألف بقدر مؤلفاته، وكان كما قال عنه من سطر في سيرته "سريع القلم، سريع الكتابة، لا يكاد يسبق وإن كان خطه مغلقًا" أي: لا يستطيع أي أحد أن يقرأ خطه، فهو سريع الكتابة لدرجة أنه كان يؤلف المؤلفات في قعدة!، فالحموية ألفها في قعدة بين صلاة الظهر والعصر، والآن تُدرّس الحموية منهجا في

الكليات ويستغرق فيها الطالب فصلا كاملا لدراستها، والواسطية رسالة ألفها في يوم، وعندما شرحها الشيخ ابن عثيمين أخذت مجلدين يحوي أكثر من ثمانمئة صفحة، وأكثر مؤلفاته كانت في مثل هذه القعدات.

وصف الإمام ابن تيمية:

كان الشيخ الإسلام رحمة الله عليه أبيض اللون، أسود الشعر و اللحية، قليل الشيب، رغم أنه توفي وعمره سبعة وستين سنة، شعره يصل إلى شحمة أذنيه يبتغي بذلك سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وفيه سمة مشهورة عنه وهي: كأن عينيه لسانان ناطقان. وهذه الصفة كانوا يوردونها دائمًا مع حدة ذكائه، فمن حدة ذكائه كأن عيناه تتحدث حتى وهو ساكت، متوسط القامة، عريض المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم، فهي حدة من لا يخاف في الله لومة لائم، ولكن يحاول أن يترفق ويتحلى بالحلم،

ختم القرآن وهو في سن صغير، وهذا أكبر معروف يمكن أن تسديه لطفلك أن تُحفِّظه القرآن وهو صغير، قرأ كتب الأحاديث واللغة العربية حتى برع فيها، ولازم مجالس الذكر، وسماع الأحاديث حتى بلغ من سمع عنهم ودرس على يديهم مئتي شيخ، تقدم للإفتاء وعمره ستة عشر عامًا، وجلس في حلق التدريس _كما شهدوا له القضاة_ وعمره اثنان وعشرون عاما.

قال ابن كثير _ وهو من تلاميذه _: "قرأ ابن تيمية رحمه الله بنفسه الكثير من الكتب وطلب الحديث ولازم السماع مدة سنين ثم اشتغل بالعلوم وكان ذكيًا كثير المحفوظ فصار إمامًا في التفسير وما يتعلق به عارفًا بالفقه واختلاف العلماء فيه، فعرف المذاهب الأربعة كلها وعرف اختلافاتها، والأصلين _ القرآن والسنة _، والنحو، واللغة، وغير ذلك، من العلوم النقلية، والعقلية، وما تكلم معه فاضل في فن من الفنون العملية والعلمية إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفًا فيه، متقنًا له، وأما الحديث...إلخ"، يعني: حين يأتيه أحد من أئمة النحو ليتحدث معه يحسبه إمام في النحو فقط، ويأتيه أحد أئمة الفقه ليتحدث معه فيسرد عليه كل المذاهب والأقوال فيها فيظنه متخصصا بالفقه، فكان رحمه الله جامعة، جمع هذه العلوم كلها في نفسه.

بدايات نبوغه:

في زمن طلبه للعلم وهو صغير كان يمر من بيته إلى الحِلق، وهو في طريقه ذاهب إلى الكُتّاب، يمر بمنزل يهودي، فكان اليهودي يسأله مسائل تشكل عليه في الإسلام، أو في اليهودية، ويرى أن شيخ الإسلام ابن تيمية طالب علم ذكي كما يظهر عليه؛ من حمله لكتبه، وذهابه للكُتّاب؛ فيسأله عن أشياء فيها شيء من خبث اليهود، وفيها من طلب العلم، فعنده مسائل تشكل عليه، وفي الوقت ذاته يحاول تشكيك هذا الولد في دينه، فكان شيخ الإسلام ابن تيمية يجيب على أسئلته حتى كف اليهودي عن السؤال؛

فصار شيخ الإسلام ابن تيمية هو من يسأله عن أمور عنده في اليهودية، فيقول ما يقول دينكم في كذا وكذا من التبشير بالنبي عليه الصلاة والسلام؟ مثلًا بأحمد أنه كذا أو كذا ألا يدل ذلك على أن الإسلام هو الحق؟ ولم يزل به يحاوره ويقنعه؛ حتى أسلم فكان يقول أسلمت على هذا الفتى، ويشير إليه وكان عمره اثنتا عشرة سنة!.

بلغ من حفظه أمر عجيب، والله إذا أراد شيئًا؛ هيأ أسبابه، فأعطاه الله عز وجل هذه الملكات الفريدة، ومن صور ذلك ماقاله جمال الدين السرمدي: من عجائب ما وقع في الحفظ في أهل زماننا شيخ الإسلام أبو العباس، فإنه كان يمر بالكتاب مرةً مطالعة، فيُنقش في ذهنه، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

يقول عمر البزار _الشيخ المعروف_: في محنته الأولى في مصر حينما سُجن ألف مصنفات عدة، صغارًا وكبارًا، وذكر فيها أثناء سجنه ما احتاج إلى ذكره، من الأحاديث، والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين، والمؤلفين، ومؤلفاتهم ،وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقلة وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذُكر فيها، وأي موضع هو منها، كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه. واختُبرت هذه الكتب بعد ما خرج، فقد قال البزار _ وهو من طلابه _: "فلما خرج، أخذنا هذه الكتب التي ألفها، وعرضناها على الكتب التي عزا إليها؛ فإذا هي الكتب، ولم نجد فيها خطأً واحدًا".

وأحد هذه الكتب هو: كتابه المشهور (الصارم المسلول على شاتم الرسول) كتاب من أربعمائة صفحة، ألفه شيخ الإسلام ابن تيمية في سجنه، وهذا من الكنوز التي يجدر بنا اقتنائها، ومطالعتها من حين إلى حين، وانظروا إلى كل تلك المراجع، وتذكروا أنها كانت جميعها بديهة من محفوظه.

يتسامع العلماء بهذا الصبي ذي القدرة الرهيبة في الحفظ، فجاء عالم من حلب إلى دمشق، يبحث عنه فقال: أين الصبي صاحب الحفظ؟ فلما مر بشيخ الإسلام ابن تيمية، قيل له: هذا هو، وكان طفلًا ومعه لوح يكتب عليه، فقال له: يا بني امسح ما فيه. وأملى عليه ثلاث عشرة حديثًا فكتبها، فقال له: تقرؤها؟ فأعطاه هو اللوح وقال: اسمعها مني. فقرأها كلها لم يخطئ في واحد منها، فقال: يا بني امسح. فمسحها، فأملى عليه أحاديث أخرى، فقال له: تقرأها؟ فقال: خذها يا عم. فأعطاه اللوح وسمّعها عليه، وواصل معه الشيخ بهذه الطريقة حتى قبّله بين عينيه، وقال: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم يُر مثله. ولم يكن ذو ذاكرة قوية في الحفظ فقط، وإنما كان يتقن فن ترابط العلوم، وهو أصعب بكثير من مجرد إتقان الحفظ، وهذا ما يفسر سماعه من مئتي شيخ.

تلامذة شيخ الإسلام:

و لنتصور الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها؛ نتعرف على تلامذته، فمن هم؟ كان من تلاميذه أكبر العلماء المشهورين، والذين نكثر من تداول أسمائهم، كانوا يثنون الركب في حلقته، ومنهم: ابن القيم ،ابن الجوزية، الذهبي، ابن مفلح الحنبلي، ابن كثير؛ صاحب التفسير المعروف، ابن قدامة، الكتبي، الصرصري، ابن

الوردي، وأيضًا هذا عالم العلماء المعروفين، محمد بن سيد الناس، التنوخي، البرزالي ،الصفدي، هؤلاء كلهم علماء وعندهم مؤلفات مشهورة.

تولى ابن تيمية في عمر اثنان وعشرون سنة دار الحديث السكرية بالقصاعين بالشام، وتولى التدريس فيها، وليس العجيب في توليه التدريس وإنما في من حضر عنده، فحضر عنده: قاضي القضاة بهاء الدين الشافعي، والشيخ تاج الدين شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين الحنبلي، فاجتمعوا عنده أئمة المذاهب في حلقة واحدة!، وهذا لم يكن معروفًا في وقتهم، كان كل أهل مذهب لهم مكان، لكن شيخ الإسلام ابن تيمية غزير العلم في المذاهب الأربعة كلها؛ فكانوا أهل المذاهب الأربعة يأتون إليه فيحضرون عنده، وكان درسًا هائلًا، حافلًا، كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه؛ لكثرة فوائده، و استحسنه الحاضرون، وأطنبوا في شكره على حداثة سنه وصغره، فكان عمره اثنتين وعشرين سنة فقط،

ومن هؤلاء الذين أطنبوا في مدحه: قاضي القضاة وهو منصب لا يتولاه أحد إلا بعد الخمسين سنة أو الستين، وجلس ابن تيمية بالجامع الأموي، بعد صلاة الجمعة، على منبر قد هُيئ له؛ ليفسر القرآن فابتدأ في أوله بالبسملة، فيقول العلماء كان درسًا مشهودًا، من غزارة الفوائد والعلم الذي قاله في البسملة فقط!، ولم يبدأ بعد في تفسير باقي القرآن، حتى سارت بأخباره الأقاليم والبلدان.

وفي الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية الكتاب الذي قدم له الشيخ بكر أبو زيد رحمة الله عليه قال: شيخ الإسلام ابن تيمية ترجم له أكثر من سبعة عشرة من تلاميذه، _ وهذا لشدة ما تأثروا بأستاذهم _، وترجم له أيضًا عشرة من معاصريه الذين فات عليهم اللقاء به. سبعة وعشرين مؤلف ومترجم!، وكانت ترجمته تتصدر أشهر طبقات المفسرين، والمحدثين، وفقهاء الحنابلة، فلم يكن _ لمتانة علمه_ يصنف في علم دون علم!.

ثم قال: والدته هي الشيخة الصالحة؛ ست النعم بنت عبد الرحمن، كانت تصرف عليه من مالها الخاص ليحفظ القرآن والحديث، فلما بلغ سن الشباب وصار يدرس انشغل عن أمه، خصوصًا عندما انتقل إلى دمشق ثم من دمشق إلى مصر في أحداث كثيرة حصلت له، فأرسل لها يوم من الأيام هذه الرسالة _ وكان بارًا بأمه _ يعتذر إليها: تعلمون أن مقامنا الساعة في مصر، في هذه البلاد؛ إنما هو لخدمة الدين و لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين البعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لصرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم ولله الحمد تختارون ما نحن فيه، ولم نعزم على الإقامة والاستيطان شهرًا واحدًا، بل كان كل يوم نستخير الله لنا ولكم، ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير، والرحمة، والهداية، والبركة، ما لم يكن يخطر

بالبال، ولا يدور في الخيال، وكل هذا ونحن مهمومون بالسفر إليكم، مستخيرون الله سبحانه عليه في ذلك.

فماذا ردت الأم؟ وهنا نقر بمقولة (وراء كل رجل عظيم امرأة)، قالت: فإني والله لمثل هذا ربّيتك، و لخدمة المسلمين نذرتك، وعلى شرائع الدين علمتك، ولا تظنن يا ولدي أن قربك مني أحب إلي من قربك من دينك، وخدمتك للإسلام في شتى الأمصار، بل إن غاية رضاي عنك لا يكون إلا بقدر ما تقدمه لدينك"، لنعرف فقط هؤلاء كيف صُنعوا؟ ومن وراءهم؟ فلم تخذله، ولم تثنه عن هدفه السامي، بطلبها أن يبقى عندها، فلو كانت هذه الحال مامُتِّعت الأمة بمثل شيخ الإسلام ابن تيمية.

تعلم الخط والحساب في الكتّاب، وهو أصغر من ست سنوات، أتقن التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربية، والتاريخ، والجبر، والمقابلة، والمنطق، والهيئة، وعلم أهل الكتابين؛ اليهودية، والنصرانية، والملل الأخرى؛ فكان يرد على الهندوس والبوذية، وغيرهم، وعلم أهل البدع كلها، بكل الفرق التي كانت موجودة، وهو ابن بضعة عشر سنة!،

كما أنه تقدم للإفتاء وعمره ست عشرة سنة، وحذق العربية في أيام، وعندما ألف سيبويه الكتاب[11] وقالوا له أنه أفضل كتاب في اللغة العربية، جاء شيخ الإسلام وهو لم يبلغ العشرين فأخذ كتاب سيبويه إلى علمائه، و عددهم مئتي شيخ، فيقول: من يشرح لي هذا الكتاب _وهو لم يتعلم اللغة العربية بعد _ ؟ فيهربون منه، ويقولون كتاب سيبويه لا يطيقه أحد، فأخذه وقرأه في جلسة، فما انتهى من الكتاب إلا وقد رد على سيبويه بأكثر من ثمانين موضعًا، أخطأ فيها سيبويه بناءً على القواعد التي وضعها هو في الكتاب.

مواطن القوة في شيخ الإسلام:

قال النبي عليه الصلاة والسلام: " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز" رواه مسلم. من يبحث في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ يجد أن مواطن القوة كلها تقريبًا تجمعت في شخص واحد، و من أكبر مواطن القوة التي اشتهر فيها هي؛ اللهج والثبات على ذكر الله عز وجل، ونصرة الإسلام والسنة بهذا الذكر، ويتمثل قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

فقال العلماء الذين ترجموا له: سر قوة شيخ الإسلام ابن تيمية هي في كثرة ذكره لله. ومن مواطن القوة أيضا: أن الله رزقه قوة في بدنه، واعتدالًا في صوته، فكان صوته جهوري الصوت، وقل أن يحفظ شيئًا فينساه، وقوته في فرط ذكائه وسيلان ذهنه، كما قيل كأن عينيه لسانان ناطقان، وكان وهو دون البلوغ _ أقل من خمسة عشر

[11] كتاب لعلم اللغة العربية واسمه (الكتاب)

سنة _ يناظر الناس، ولم ينقطع عن أحد، فيناظرهم إلى أن يقطعهم، وهو قوي في بحثه، و قراءته، ومطالعته، حتى إنه يقول: كنت أقرأ في تفسير الآية الواحدة أكثر من مئتي تفسير، فلا يبدو لي منها شيء،[12] فلا أزال أقول يامعلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، حتى يفتح الله عز وجل عليَّ من فتوحه ما تقر به نفسي" فكان عنده مجلدات لتفسير القرآن الكريم، رغم أنه لم يفرد كتابا للتفسير، ولكن حين جُمعت المتفرقات ظهر لنا نتاجه من التفسير.

علمه وعمله:

كان يرفض العطايا من الأمراء، أو الأموال، أو الهبات، وإن اجتمع له في اليوم ألف، أو ألفين ،أو أموال كثيرة لا يمسي حتى ينفقها على الفقراء والمساكين،

ولم يتزوج، ولم يملك جارية، ليس بعدًا ولا زهدًا في السنة، بدليل أنه كان من أتبع الناس في السنة، ولكنه شُغل عن ذلك، وبالعودة للعصر الذي عاش فيه؛ نجد أن للشك مظاهر وفي كل يوم فتنة مضلة، وفرقة جديدة، وبدعة مستحدثة، فكان مشغولا؛ شغله الجهاد ،والعلم، ومقارعة أهل البدع عن الزواج ،

كان جادًا في حياته، بعيدًا عن الهزل، بعيدًا كل البعد عن الغيبة والنميمة، حتى إنه ماعُرفت له عثرةٌ قط، لا في لحظة مزح، ولا في لحظة خصومة، ولا في لحظة اغتاب أحدًا ممن ألبوا عليه، كل هذا مع قوة في تعبده، وتألهه، ومداومة ذكره للأوراد، لا يشغله عن ذلك شاغل، ولا يصرفه عن ذلك صارف،

فيقولون كان كثير التأله، فكان يذهب إلى المساجد الخربة التي لا يوجد فيها أحد، وكان طلابه يتبعونه، فإذا هو يذهب إلى صحاري وقفار ليس فيها أحد؛ فيسجد لله السجدات الطويلة، يذكر الله عز وجل ويلهج بها، فنعلم بذلك أنه لا يوجد علم بلا عمل، فلن يكون الإنسان مجاهدًا، قويًا، فارسًا ،أو عالمًا معلمًا دون أن يكون عابدًا لله،

في مثل هذه المواطن يجب أن يكون لك سرائر خفية، فهي التي يظهر نورها عليك وهذا ماعنيناه بقولنا؛ يلمع ذهبًا في وسط الملطخ بالطين، لأن هناك حبل مربوط بينه وبين الله عز وجل، شد هو ذلك الحبل فنال مانال بشدة تمسكه، وكما قلنا كان قويًا في التأليف فقُدِّرت مؤلفاته بخمس مئة مجلد!، فلو قسمناها على أيام حياته وافترضنا أنه بدأ التأليف في عمر اثني عشرة سنة؛ يكون مجموع مايكتب في اليوم والليلة أربعة كراريس!؛ أربع مجلدات في كل يوم من أيام حياته!، فتأملوا هذا المجهود الذهني والعقلي!،

هب أن في الكراس قرابة ثمانون ورقة فيعني أنه يؤلف ٤٠٠ صفحة يوميًا!، فلما جُمعت رسائله ونتاجه العلمي، بلغت أكثر من سبعة وثلاثين مجلدا في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذه الفتاوى كل واحد منها يتفاوت؛ ما بين مئتين إلى ثمانمائة صفحة!.

[12] أي لا يتضح له تفسيرها

من مظاهر زهده:

شيخ الإسلام كان من أعظم أسباب نبوغه؛ الزهد في المناصب والولايات وكان كثيرًا ما يستشهد بالإمام أحمد ويقول عنه:" أتته الدنيا فأباها والولايات فقلاها " فكانت الدنيا تأتيه إلى أقدامه فيأباها لأنه مشغول بشيء أكبر من ذلك فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية "فمسكين من يتطلع ويقول أنا لها ومغبون والله من دفع ثمنها مقدمًا بالتنازل عن شيء من دينه".

كان مشهورًا بالبذاذة من الإيمان والاقتصاد في أمور المعاش فكان متواضعًا وزاهدًا في الدنيا رغم أن الأمراء والعلماء يأتون في مجلسه وكل أمير من الأمراء يود التقرب له بشيء ومع ذلك لم يمنحهم تلك الفرصة.

سأل الشمس ابن الديري علاء البسطامي _ وهما ببيت المقدس _: (رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية)؟ قال: نعم. قال: كيف كانت صفته؟ قال هل رأيت قبة الصخرة _ كانت مذهبة في ذلك الوقت _؟ قلت: نعم. قال: "كان كقبة الصخرة مليئًا كتبًا ولها لسان تنطق" فكان عالمًا يفتح الله عليه بميراث علم النبوة ما قرع به الحلولية والاتحادية والطرقية والبدعية والجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمقلدة وكل منهم يرى أن ما عليه هو الحق ثم يأتي هو كحامل ضياء فيكاسر هؤلاء ويكاسر هؤلاء ويرفع به الدين فيناظر هذا تارة ويناظر هذا تارة ويجادل هذا تارة ويُؤذى تارة ويُسجن تارة حتى إنه سجن أكثر من 7 مرات وتختلف مدة سجنه بكل مرة ما بين أشهر وسنوات إلى أن وصل مجموع سنوات سجنه ٦ سنين من عمره قضاها في السجن من 67 عامًا عاشها.

مناقبه وأخلاقه:

نعود إلى حياته قال عنه محمد السكي: والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري مايقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به" ،

وقال أبو الحجاج المزي: (ما رأيت مثل ابن تيمية ولا رأى هو مثل نفسه وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله منه ولا أتبع لهما منه) سأله أحدهم فقال له أنت تزعم أن كل شيء تفعله من السنة قال: نعم، قال: فعلامَ عرك الناس؟، قال: حدثنا النبي -عليه الصلاة والسلام- والحديث في الصحيحين وأتى له بكل الأسانيد أن ابن عباس صلى مع النبي -عليه الصلاة والسلام- قال ابن عباس: فلما غفوت عرك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أذني، فتأملوا حتى هذا الشيء اليسير عركة الأذن عندما أتى من يريد أن يلجمه أتى له بكل الأحاديث الدالة على عركة هذه الأذن فما بالك بما هو أكبر من ذلك،

قال العمري: (كان ابن تيمية لا تأخذه في الحق لومة لائم وليس عنده مداهنة وكان مادحه وذامه في الحق سواء)، الزملكاني الذي كان من ألد خصومه ومن أعدى أعدائه والذي ألب السلطان الناس عليه حتى سُجن يقول: (كان ابن تيمية إذا سئل عن علم أو فن من العلوم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أنه لا يعرف أحد مثله وكانت الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذاهبهم ومناظر معه أحد فانقطع عنه ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان علوم الشرع أو غيرها إلا فاق أهله) فتأملوا يأتيه شيوخ من كل المذاهب ويناقش كل منهم في مذهبه ويفوقهم علما.

تنسكه وعبادته:

قال الإمام ابن القيم: (حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريبًا من انتصاف النهار ثم التفت إليه وقال هذه غدوتي ولو لم أتغدها لسقطت قوتي)

هذه حادثة مشهورة عن شيخ الإسلام ابن تيمية ودائمًا نستشهد بها نود أن نتوقف عندها وقفة تأمل؛ لنتفكر كيف استطاع أن يجادل أهل البدع و يناظرهم ويقيم عليهم الحق وأن يؤلف في اليوم أربعة كراريس؟! نعم استطاع ذلك بهذا القدر من اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، ويقول هو عن نفسه : "إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل علي فأستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل وأكون إذ ذاك في السوق أو في المسجد أو في المدرسة أو الدرب لا يمنعني ذلك من الذكر أو الاستغفار إلى أن أنال مطلوبي" فذكر الله حاضر في ذهنه دائمًا.

وذكر أيضا الإمام ابن القيم عن شيخ الإسلام ذات مرة قوله: "إني لا أترك الذكر إلا بنية إرادة راحة نفسي لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر" معنى هذا أنه لا يتوقف عن ذكر الله عز وجل، وهذا هو الذي ألف 500 مجلد في كل يوم 400 صفحة يؤلفها ولسانه لم يكن ينقطع عن ذكر الله فهذا سر من أسرار هؤلاء الأشخاص ، وهو ذكر الله عز وجل **فمن أراد الفتوح من الله والتوفيق واستجابة دعائه فعليه بالإكثار من ذكر الله واستغفاره**.

محمد بن عبد الهادي قال عنه: (في مدة إقامته في السجن بعد ما أخذوا عنه الأقلام في آخر حياته ختم القرآن في سجنه 80 ختمة فلما وصل إلى سورة القمر (اقتربت الساعة) وقرأ قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ المُتَّقينَ فى جَنّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فى مَقعَدِ صِدقٍ عِندَ مَليكٍ مُقتَدِرٍ﴾ [القمر: 54] توفي عندها وكان يقرأ في اليوم الواحد أكثر من 3 أجزاء و يختم في أقل من 10 أيام .

يقول البزار وهو من تلاميذه الملازمين له : كان ابن تيمية قد قطع جل وقته في العبادة حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى فكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس لصلاة الفجر يأتي بسنتيها قبل إتيانه بالفرض وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب فإذا وقف في الصلاة ارتعدت الصفوف فهذا حال كثير التعبد في وقت الصلاة وهو أمام الله عز وجل ترتعد فرائصه فينظر الناس كيف يرجف في صلاته خوفًا وخشية من الله عز وجل و﴿... إِنَّما يَخشَى اللَّهَ مِن عِبادِهِ العُلَمٰؤُا۟ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] فكلما كان الإنسان أكثر عبادة وعلمًا كان أكثر خشية لله عز وجل والصلاة التي بلا روح وبلا طعم وبلا خشوع هي دليل على جهلنا بالله! ودليل أننا لم نعرف الله عز وجل ولذلك نكبر، نسجد، نركع، ولا ترجف قلوبنا! .

ويقول أيضا: وكان من عادته ألا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر فلا يزال في الذكر يُسمع نفسه وربما يسمع ذكره من كان إلى جانبه مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء؛ هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس وليس وهو سارح يذكر الله عز وجل ، بل كان كثيرًا ما يذكر الله عز وجل وهو يقلب عينيه إلى السماء فيتدبر ويتأمل في ملكوت الله وهذا أدعى في الخشية أنك تنظر إلى السماء في ذكرك وفي استغفارك كأنك تستنزل رحمات الله عز وجل عليك.

وقال: (ما رأيت ولا سمعت بمثل تواضعه في عصره كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني والصالح والفقير وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه زيادة على ما يفعل من الأغنياء) فكان يباسط الفقير أكثر من الأغنياء جبرًا لخاطره وحملًا لحاجته وتقربًا بذلك إلى الله فتأملوا كيف يعلي من منازل الفقراء رغم أن مجلسه كان حافلًا بكل أحد.

يقول ابن القيم في كتابه الطب النبوي : وكان ابن تيمية متسلطًا ليس فقط على أهل البدع والفرق الباطلة وإنما كان يتسلط حتى على مردتهم فكان إذا رأى شخصًا مصروعًا؛ أي: به مس من الجان، يأتيه شيخ الإسلام ابن تيمية فيمسك بإذنه ويردد آية واحدة فقط يتلوها مرة واحدة: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون) فيقوم الرجل كأنما نشط من عقال يهرب الجني فلا يرجع إليه أبدًا من ماذا؟ فهو لم يقرأ عليه سورة البقرة كاملة ولا المعوذات وإنما قرأ عليه آية واحدة!، وعظ الجني المتلبس بالإنسي بصدق ويقين فهرب الجني من هذا الإنسان فكأنما نشط من عقال والقصة ذكرها ابن القيم وهو من تلاميذه في كتابه الطب النبوي.

ويقول أيضًا ابن حيان:_ وكان من علماء اللغة _: تكلمت مع شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة في النحو فقلت له إن سيبويه يقول كذا وهو خلاف كلامك، قال لقد رددت على سيبويه أكثر من 80 موضعًا من القرآن والسنة!، وكما هو معلوم عن سيبويه أنه إمام في اللغة رحمة الله عليهم جميعًا.

جاءه في يوم من الأيام يهودي في مجلس علم فسأله عن مسألة في القدر دقيقة جدًا من الشبهات نظمها في سبعة أبيات أو ثمانية وألقاها على مسمعه ومسامع تلاميذه، فلما سمعها منه شيخ الإسلام ابن تيمية أمر بالأوراق والكتب فأنشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثرًا فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه وإذا هو قد نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها ردًا على اليهود بأكثر من 184 بيتًا!، رد فيها على مسألة القدر في الإسلام وفي اليهودية وحاجّه فيها بنفس المجلس.

ثباته عند الشدائد:

في الواقعة المعروفة حين جاء التتر إلى الشام فخاف علماء الممالك و ترددوا في مواجهة التتار وقالوا لا يمكن أن نواجه التتار فقد سقطت الخلافة العباسية، حين سقطت بغداد، ولم يبق إلا الشام ومصر وكانت تحت إدارة المماليك في ذلك الوقت، فجمعوا جنودهم، و فطنوا أن الجيش لا يكفي لمواجهة التتار في تلك الموقعة فما كان من شيخ الإسلام ابن تيمية حين عرف تردد السلطان وإمكانية هربه مثل باقي الأمراء إلا أن ذهب من مصر مسرعًا إلى الشام فدخل عليه ومكث عنده ثمانية أيام يقرأ عليه من القرآن والسنة ما يستنهض به همته حتى شرح الله صدر السلطان إلى مقارعة التتار وإلى تجميع الجيوش ففرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: (ونحن في جيش مصر معكم).

فكانت المعركة في رمضان وهي المعروفة بمعركة (شقحب) وكانت في النهار وحين تواجه الجيشان، فإذا المسلمون بجيشهم الصغير الذي يقارب بضعة آلاف يقابل جيش التتار الذي هو بمد البصر فقال السلطان لما رأى هذا الجيش المهول : يا خالد بن الوليد! ويقصد أن هذا الجيش لا يهزمه إلا هو، فنهره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: قل يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ،استعن بالله فلم يزل به يستنهضه مرة أخرى حتى استنهض السلطان لذلك فلما رأى همة السلطان قال: والله إنّا اليوم لمنصورون، فكان ضباط الجيش يقولون له قل إن شاء الله!، فهم كما يبدو في معركة انتحارية، فقال: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا . لأنه يتمثل بذلك قول الله عز وجل ﴿ذٰلِكَ وَمَن عاقَبَ بِمِثلِ ما عوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفورٌ﴾ [الحج: 60] وبالفعل انتصروا على التتار في تلك المعركة.

في مواجهة ملك التتار:

وفي خضم هذه المعركة العظيمة الحاسمة دعا ملك التتار (قازان) المسلمين للمفاوضات وكان على الجهة الأخرى الجهبذ شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول: دعوني أذهب إليه لأعظه، فربما تُحل الأمور ويكفينا

الله شر القتال، فلما ذهب إلى قازان بدأ هو الحديث على عكس ما قرروه من بدء الملك بالحديث ضاربًا بذلك طقوسهم التعظيمية عرض الحائط ولم يركع ولم يفعل شيئًا من بروتوكولاتهم المهينة، وأول ما رأى قازان وهو من حفدة هولاكو وجنكيز خان ومن سلالة هذه الأسماء المخيفة؛

وضع عينه في عينه وقال "أنت تزعم أنك مسلم؟ _ لأن المغول في أثناء تنقلهم زعموا أنهم أسلموا _ ومعك مؤذن وقاض وإمام على ما بلغنا فغزوتنا ودخلت بلادنا على ماذا؟ كيف استحللت دماءنا إن كنت مسلمًا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد المسلمين، بل عاهدا فوفيا عهدهما وأنت عاهدت فغدرت وقلت ولم توفِ" وهذا قوله عند ملك التتار المعروفين بوحشيتهم وأنه لو أشار بيده للجنود المسلطة سيوفهم لقتلوا كل الحاضرين في لمحة،

ولكن، قال له: أطعم. يعني: دع عنك هذا الكلام وكُل، وقرب لهم مائدة عامرة، ورافق شيخ الإسلام وفد من الأعيان؛ من العلماء، والتجار، فأكلوا خوفًا من ملك التتار، ولم يأكل شيخ الإسلام ابن تيمية فقال له قازان: لم لا تأكل؟ قال: "وكيف آكل وكل طعامكم مما نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما نهبتموه من أشجار الناس وهذا كله لا يجوز في دين الله" فقال له قازان: ادع لنا يا شيخ، فتأملوا كيف يتحدث شيخ الإسلام بلهجة من لا يخشى في الله لومة لائم ويستشير غضب الباغي ومع ذلك لم يستطع قازان ملك التتار أن يحرك شعرة فيه!

رد عليه شيخ الإسلام: "اللهم إن كان عبدك هذا محمود يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملّكه البلاد والعباد و اللهم إن كان قام رياء وسمعة وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا و ليذل الإسلام وأهله فاللهم اخذله واللهم أنزل به عذابك و اللهم دمره واقطع دابره" ومحمود قازان يؤمّن ويقول: اللهم آمين، آمين. وأصحابه من التجار والعلماء يمسكون ثيابهم برعب من سطوة المشهد، ولم يجرؤ الملك على الاعتداء عليه.

حسن الظن بالله يغلب الأخذ بالأسباب من غير توكل:

عند خروجهم للعودة لاموا شيخ الإسلام ابن تيمية، قائلين: ذهبنا لتهدئة الأمور وحل المشاكل، وهذا كلامك!، فقال له قاضي القضاة نجم الدين: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا، فسلكوا طريقًا آخر وتركوه مع مجموعة من أصحابه يعود لدمشق دونهم لخوفهم من أن يكون ملك التتار لهم بالمرصاد فيرسل من جنوده من يغتالهم في طريق العودة، وكان مع هذه المجموعة الصرصري فيقول: لحقه أمراء من التتار، يقولون له: يا شيخ ادع له!، يا شيخ ادع له!، ومازالوا وراءه يطلبونه حتى دخل دمشق بوفد من 300 فارس يحيطونه، وأما تلك المجموعة الأخرى فخرج عليهم قطاع الطرق التتار فنهبوهم ملابسهم وأموالهم ودخلوا دمشق بلا ملابس!، فسبحان الله على حمايته ورعايته.

من كان مع الله لم يّخذل:

في قصة مشهورة لابن تيمية مع هؤلاء أنه دخل مرة على قازان يستشفع للأسرى الذين أسرهم في معركة من المعارك فأطلق سراح المسلمين وقال حبًا وكرامة أطلقنا لك الأسرى من المسلمين قال: لا والنصارى أيضًا وأهل الذمة كل من أخذتهم من بلادنا ترجعهم، قالوا وما لك وإياهم؟ قالوا نحن نستشفع بأهل الملة وأهل الذمة فكانوا يؤدون لنا الجزية إذن لهم حق علينا أن نستشفع بهم، فلم يزل بهم حتى لم يبقَ عنده ولا أحد لا من أهل الملة من الإسلام ولا من أهل الذمة اليهود ولا النصارى ولا من السبي ولا من الجواري، فهذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية.

رحمته حتى بمن عاداه

علمنا أنه سجن سبع مرات وفي كل وحدة من هذه المرات كان له مخالفين و مناوئين وكان بعضهم من النصارى والرافضة والصوفية وبعضهم من أئمة المذاهب ولكن اختلفوا في بعض الفتاوى فخلال هذه التنقلات كان يسجن ثم يأتي خليفة آخر يحب ابن تيمية فيخرجه ويقول له سأسجن الذين كانوا يناوئُنك والذين كانوا يؤلبون عليك السلطان فكان يرد شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله أنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدى حدود الله بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية أو جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل

وكان يقول لا أحب أن أنتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه فإني قد أحللت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحببته لنفسه فكان بعض أصحاب ابن تيمية الأكابر يقولون وددت أني لأصحابي مثل ابن تيمية لأعدائه يقول ابن القيم جئته يومًا مبشرًا بموت أحد أعدائه من الذين كانوا يؤلبون دائمًا السلطان عليه فنهره شيخ الإسلام ابن تيمية قال تبشرني بموت مسلم! أين بيته فذهب إلى أهل وعزاهم وقال إني أنا أبوكم وإني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه فانظروا إلى فعله مع ألد الناس وأعدائه لم يقل الحمد لله الذي بلغنا الله هذا اليوم ولا الحمد لله الذي نصرنا الله عليه في الدنيا والوعيد في الآخرة بل قال تبشرني بموت مسلم أنا لا يسرني أنه مات على هذا الذنب ولا على هذه الخطيئة.

قال ابن القيم ما رأيت ابن تيمية يدعو على أحد من أعدائه قط وكان يدعو لهم وعندما سجن آخر مرة في سجن القلعة دخل أخوه فرأى من مرض شيخ الإسلام ابن تيمية ما انقهر له فجلس يدعو ويبتهل على من سجنوه فنهره شيخ الإسلام ابن تيمية وأنزل يديه قال لا تفعل ادع لهم أن ينور الله قلوبهم بالهداية فإني أحب لهم الهداية أكثر من حبي لهم بالانتقام

فانظروا إلى هذه المشاعر من هذا الشخص الذي كان كالسيف المسلول على أهل البدع وأهل الطرق وغيرهم من أهل المبتدعة ثم هو بهذا اللين أيضا وتنطبق صفة المؤمنين عليه أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ولم يكن يفرق بين المذاهب وكان يجوز إمامة أهل المذاهب لبعضهم كأن يأتم الشافعي بالحنبلي أو الحنفي ويقول أن ذلك هو مذهب الصحابة والتابعين أن كلهم يأتمون ببعض فلم يكن بينهم خلاف وحتى إن اختلفوا في مسألة فهي مجرد اختلافات فقهية لا تقدح في العقيدة كما أنه من أشد الناس منعةً في التكفير ولا

يسمح بالتكفير رغم أنه موسوم بأنه شيخ التكفير والإرهاب وهو من أبعد الناس في ذلك ويقول في كتابه : ولا يجوز تكفير مسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة فإذا كان هؤلاء _ يعني الخوارج_ الذين خرجوا في عهده لم يكفروا بإجماع العلماء مع أن الله قد أمر بقتالهم قال النبي -عليه الصلاة والسلام- «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» رواه البخاري.

ومع ذلك لم يكفرهم النبي -عليه الصلاة والسلام- ونهى عن تكفير الطوائف أو أن تستحل دماؤها وأموالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف بغيرهم من الناس الصالحين الذين اختلفوا في مسائل معدودة.

قصة سجنه:

بعد هذا سُجن شيخ الإسلام ابن تيمية في سجن القلعة بدمشق وكان يقول في السجن: إن هذا الوقت من أحب الأوقات إليه، وكان يقول: إن أعداءه ما فعلوا به شيئًا مثل ما أحسنوا له بأنهم جعلوه في هذا السجن، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ويقول عنه ابن القيم : قال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أينما ذهبت فهي معي. يقول هذا الكلام بعد رحلة طويلة وكمية كبيرة من التفاصيل لم نذكرها ومن عنده متسع من الوقت يقرأ المزيد عن حياة ابن تيمية.

وفي مرحلة من المراحل نُفي إلى الإسكندرية بعدما عجزوا فيه فسجنوه وسجنوه ولم يجدِ نفعًا، ولماذا الإسكندرية بالذات؟ لأنها في القرن السابع كانت موئل وموطن الصوفية وطرق الصوفية كانت تعشعش فيها فقالوا إن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يصبر على البدع وعلى أهل الطرق وغيرها وعلى أي شيء مخالف للسنة، فننفيه عند الصوفية ليقتلوه يقول أخوه شرف الدين _ وكان ملازمًا له _ : فنفونا إلى هناك وظنوا أنه سيهلك فخابت أهدافهم وظلوا عند الله وعند الناس معروفين بسود الوجوه وقد انقلب كافة أهل الثغر أهل الإسكندرية إلى الأخ أي ابن تيمية مقبلين عليه مكرمين له في كل وقت يعلمهم من كتاب الله وسنة رسوله وذلك شجن في حلوق الأعداء رغم أن الإسكندرية قد وُجد بها إبليس فباض وفرخ (بسبب كثرة الصوفية) فصار لهم طرقًا هناك فما زال شيخ الإسلام يمزق شملهم بكتاب الله وتلاوة آياته وبالسنة حتى تاب عدد منهم وتاب رئيس طرقهم وخواصهم من أمير وقاض وفقيه وشيخ وعدد من المجتهدين وأمرائهم في الإسكندرية كلهم تابوا إلى منهج أهل السنة والجماعة في ذلك الوقت.

فهو يقول _ بعد رحلة طويلة من السجن ومن النفي من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة _: "أنا ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رحت فهي معي لا تفارقني أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة"

وكان في سجن القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة وما جزيتهم على ما فعلوه فيني. وكان يقول في سجوده وهو مسجون :اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن

عبادتك فتخيلوا كيف كان في نعمة عظيمة، وقال مرة: المحبوس من حُبِسَ قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه، ولما دخل القلعة وصار داخلها نظر إليه وقال: فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب

يقول ابن القيم: "والله وما علمت وما رأيت أحد أطيب عيشًا منه قط! مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف[13] وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف[14] وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض[15] أتيناه فما هو والله إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنا ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها

وهذا كله وهو في سجن القلعة وألف فيه مؤلفات كثيرة ومنها رسالة اسمها: الأخنائية، في الرد على أحد القضاة اسمه فلان القاضي الأخنائي لمسألة أخطأ فيها فهو في السجن ووصل له أن هذا أخطأ فرد عليه لا يترك شيئًا ولا تأخذه في الله لومة لائم! فكان الرد في مجلد فاشتكى القاضي إلى السلطان أن انظر في أمر هذا فهو في سجنه ويؤلف ويرد علينا فنُزعت منه الأقلام ونُزعت منه كل الكتب التي كتبها وبلغت في ذلك الوقت 60 مجلدًا، فبدأ يكتب بالفحم المُلقى في السجن على أوراق متناثرة فجُمعت في كراريس وسميت بالرسائل الفحمية فلما علموا بذلك أزالوا منه حتى الفحم وكل شيء، فتفرغ بعدها للقرآن والتعبد والتهجد وقال بعدها: أنا لو وزنت هذه القلعة ذهبًا ما وزنتها بما فتح الله عز وجل علي فيها من معرفة آيه وكتابه.

ثم مرض ابن تيمية رحمة الله عز وجل عليه ومات في مرضه ذلك سنة 728 عن عمر يناهز ٦٧ عامًا وأخرجت جنازته من السجن بعد أربعة سنوات في هذا السجن، وكان يُفترض أن الناس تركوه لأنه عندما سُجن نادى مناد أن من كان على عقيدة ابن تيمية فهو كافر ويقتل ومن كان يذهب بمثل مذهبه فستقطع رقابهم، فكل الحنابلة وكل من كانوا على مذهب ابن تيمية صاروا يقولون: نحن شافعية أو أي مذهب آخر لكي لا يوصمون أنهم أتباع ابن تيمية فأربعة سنين من هذا التهجير المطلق ومع ذلك ما إن خرجت جنازته من السجن _وهو المطارد المغضوب عليه _ شيّعه في جنازته 500 ألف نفس!، أي نصف مليون غير الخائفين الذين لم يخرجوا، وخرج منهم كبار قادة الأمراء في ذلك الوقت وصاح منادٍ من كان يريد معرفة أهل السنة فلينظر إلى جنائزهم ولذلك كانوا يستحضرون كلمة إمام أهل السنة الشيخ أحمد بن حنبل حينما كان يقول بيننا وبينهم يوم الجنائز .

لما صودرت كتبه شق ذلك على تلامذته ومنهم ابن القيم والذهبي وابن كثير صاحب التفسير وغيرهم فشق عليهم أن كتبه لم يكتبها أحد وأن لا يسجل أحدًا هذا العلم فأرسل لهم أحدهم وهو أحمد بن محمّد بن مري الحنبلي رسالة إلى تلاميذه رسالة طويلة قرابة 40 صفحة يواسيهم ويعزيهم بوفاة شيخهم ويصبرهم فيقول: (واعلموا أنا قد علمنا

[13] فهو لم يكن فقط مسجون، بل مسجون ومهدد وتردد عليه عبارات: "أنت ستقتل" و"أنت ستُذبح"!و"السلطان يقول فيك كذا وكذا "

[14] وهم طلقاء وهو مسجون

[15] تضيق بهم بسبب أهل البدع والفتن والإلحاد

من شيخكم من نقاوة قلبه ونقاء سريرته ما نعلم أن الله سيخرج لعلمه من يأتي به ويعلمه على رؤوس الناس من هم الآن أناس هم ذراري في أصلاب آبائهم "، وهكذا تموت كتب ابن تيمية ما يقرب من 200 سنة.

مصابيح الحق تنير من جديد:

بعد هذه السنين الطويلة يقيض الله عز وجل لها اثنين :

- الأول: الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب فذهب وتلمس كتب ابن تيمية، فوقع لأول مرة على كتاب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية فأعجب به باتباعه مذهب أهل السنة فلم يكن يتجاوز القرآن والأحاديث الصحيحة، وهذا نادر بسبب انتشار الفِرق والمذاهب وابن تيمية كان واضحًا في تمسكه بالسنة وعدم حيادته عنها فأعجب به الإمام محمد بن عبد الوهاب فبدأ في تتبع كتبه فأخذها فجاء بها من الزبير في العراق فجاء بهذا الكتاب منزوع الغلاف لئلا يعرفه أحد لأن ابن تيمية لم يكن مرضيا عليه، فبدأ يُعلم بما في هذا الكتاب حتى انتشر علمه في الجزيرة وبدأ يؤسس لرجوع الدين صحيحًا وعندما نقرأ عن سيرته يقال: "وكان إمامه ابن تيمية" رغم ما يبعد بينهم من قرنين كاملين وليس هذا فقط كان ابن تيمية مجرد كتب متناثرة لأنه مات في وقت صودرت فيه كل كتبه فتفرق طلبته، فكان كتاب العقيدة الحموية مخبّا في مكان، وكتاب العقيدة الواسطية في مكان آخر وهكذا تفرقت كتبه كلها.

- والثاني: ابن قاسم تلميذ من تلاميذه في القرن التاسع عشر يذهب فيتلمس كل مخطوطة كتبها ابن تيمية يسافر لها في كل البلدان فسافر إلى إنجلترا وتركيا وإلى مكان في أسفل اليونان يبحث عن المخطوطات حتى في الكنائس وليس فقط المتاحف فيجمع هذه المخطوطات ويشتريها بالآلاف، فدرس خط ابن تيمية الصعب _وكان مغلقًا كما ذكرنا_ فأعطاه الله عز وجل هذه الموهبة؛ فتح خط ابن تيمية، فجمع هذه المؤلفات كلها، حتى بلغت 37 مجلدًا، وقيل إنها أكثر من 4 آلاف صفحة تقريبًا.

أحمد بن مري الحنبلي في رسالته يقول _ عن شيخ الإسلام ابن تيمية _: "والله إنا لنعلم من نقاء سريرته أن علمه لن يضيع وأن الله سيقيض لعلمه من هم الآن في أصلاب آبائهم لم يخلقوا بعد" فيبقي الله عز وجل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كما أبقى الله عز وجل ذكر غيره من علماء هذه الأمة ومنهم الإمام البخاري رحمة الله عليه فقد مات البخاري شريدًا طريدًا مصادرةً كتبه ثم شاء الله عز وجل أن يعود كتابه من جديد ويقال عنه إنه أصح كتاب بعد القرآن.

كانت هذه سيرة لشيخ من شيوخ هذا الدين وهو شيخ الإسلام ابن تيمية وما أخبرتكم به ليس إلا قطرة في بحر هذا الشيخ ومواقفه ومناظراته شيء كثير وعظيم، ولعل في هذا كفاية بإذن الله.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها